قصةُ رواية

محمد كامل الخطيب

في عام ١٩٨٧ كتبتُ روايةً اسمُها **غابةُ الأشجار الصغيرة**، ونشرتُ منها فصلاً في مجلة **دراسات اشتراكيّة** التي تَصْدر في دمشق. ثم تقدّمتُ بالرواية للنشر في مطبوعات وزارة الثقافة، فوافقت الوزارةُ على النشر. ولكنْ جاء إلى الوزارة في ذلك الوقت كِتابٌ من القيادة القُطْريّة يَطْلب منها أن تَعْرض عليها الكتبَ المخطوطةَ التي ستَنْشرها قبل طبعها. وكان هذا أمرًا جديدًا بالنسبة إلى وزارة الثقافة وكُتبها.

أَرسلت الوزارةُ بعضَ المخطوطات الموافقِ عليها، والمعدَّةِ للنشر، إلى القيادة القطريّة، ومن بينها الروايةُ المذكورة. وبعد شهور عادت المخطوطاتُ المرسلة وقد وُوفق على طبع أكثرها، واعتُرِضَ على طبع بعضها ـ ومن بينها روايتي. ولكي لا يكون هناك إحراج ـ فأنا أعمل في الوزارة ـ قمتُ باستعادة الرواية.

تقدّمتُ بالرواية إلى اتّحاد الكتّاب العرب في دمشق، وكان قد سَبَقَ أن نَشَرَ لي ثلاثَ مجموعات قصص قصيرة مع أنّني لستُ عضوًا فيه. وحَدَثَ أنْ علمتُ ـ بطريقةٍ ما ـ أنّ هناك اتّجاهًا لنشر الرواية، لكنّ مسؤول قسم المخطوطات أخبرني أنّ من الأفضل أن أرى السيّد رئيسَ الاتّحاد. فقلتُ له إنّني لا أرى ضرورةً لذلك؛ فأنا مواطن لي معاملةٌ رسميّة، ولا ضرورةَ لمثل هذا اللقاء الشخصيّ. وكانت النتيجة بعد أسبوع: الاعتذار عن عدم النشر.

روايتي رُفضتْ، ثم قُبلت، ثم رُفضتْ

عند ذلك قررتُ أن أَطْبع الروايةَ على حسابي. فتقدّمتُ إلى مديريّة الرقابة في وزارة الإعلام. وحسب الأصول المتّبعة في الرقابة السوريّة، أُحيلت الروايةُ على اتّحاد الكتّاب لمراقبتها. فأتى الردُّ بعدم الموافقة على طبعها.

كان هناك ناشر عربيّ ذو نفوذ، ويَعْمل في دمشق. فحدّثتُه عن قصة الرواية، وكانت تربطني به علاقةٌ جيّدةٌ آنذاك، فأبدى استعدادَه لنشرها، حتى ولو اضطُرَّ إلى طبعها في بيروت. وهكذا تقدَّم الناشرُ بطلب الموافقة على النشر إلى وزارة الإعلام، التي أحالت الرواية ـ كما هو متّبعٌ في سوريا ـ على اتّحاد الكتّاب، فرفض نشرَها، ووضع خاتمَه الرسميَّ على هذا الرفض. ولأنّ الناشر ذو نفوذ، فقد اتّصل بالاتّحاد طالبًا الموافقة، فأُجيب طلبُه وشُطِبَ ختمُ الرفض، ووُضِع بدلَه ختمُ الموافقة!

كان من الممكن أن تَنْتهي القصةُ هنا، وتُنْشر الروايةُ في سنة ١٩٩٥. إلاّ أنّ الناشر الذي كانت تربطني به علاقةٌ حسنةٌ، وقد رأى ـ وأراني ـ مدى نفوذه، مثلما رأى مدى حراجة موقفي، أَبْلَغَ أحدَ الأصدقاء المشتركين بأنّه ليس

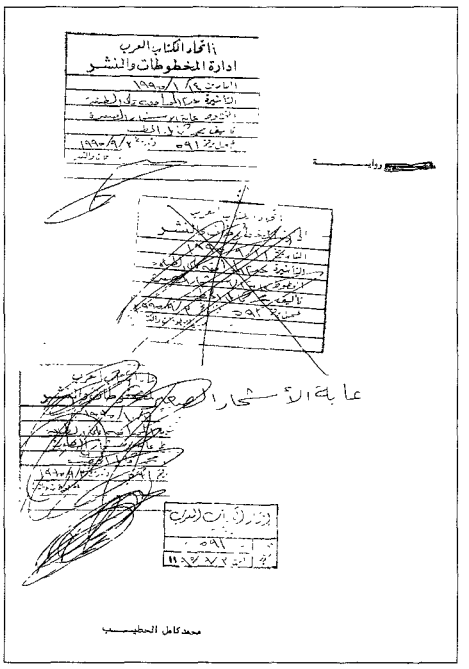

بين ٩٥/٩/١١ و ٩٥/١٠/١٤:
من «الموافقة» إلى «عدم الموافقة»

مستعداً لدفع أيّ مبلغ مقابل نشر الرواية، مادام لا أحد يَسْتطيع نشرَها إلاّ هو.

كان من الطبيعيّ أن أَعْتبر الأمرَ ابتزازًا، إنْ لم أقل مسّاً بالكرامة. فطلبتُ عدمَ نشر الرواية وإعادتَها إليّ. لكنّ الناشر الذي كان حريصًا، على ما يَبْدو، على ألاّ أستغلّ نفوذَه ـ أيْ حصوله على موافقة النشر ـ اتّصل بالاتّحاد، وطَلَبَ إلغاءَ موافقة النشر. وهكذا أتى الخَتْمُ الثالثُ، على الصفحة نفسها، بعدم إجازة الطبع.

في سنة ١٩٩٩ قابلتُ صديقًا في أحد المقاهي، وكان على معرفة بطرق الحصول على الموافقات. فطلبتُ منه المساعدة في نشر الرواية وكتبٍ أخرى. وفعلاً حصل هذا الصديقُ على موافقات النشر. فنُشرت الروايةُ متأخّرةً ١٢ عامًا. وبالطبع لم يَحْدث شيء بعد نشر الرواية، أو بسبب نشرها.

بقيتْ مسألةٌ أملُ أن أُعذر على عدم نسيانها. فقد تَرجم الأستاذ صالح علماني، في عام ١٩٩٩ عن اللّغة الإسبانيّة، روايةً مكتوبةً عام ١٩٨٩ بعنوان **أباباكوآك** لمؤلّفها برناردو أتشاغا. والرواية الإسبانيّة مكتوبة بالتقنيّة نفسها التي كتبتُ بها رواية **الأشجار الصغيرة**. ولَكُمْ أن تتصوّروا ماذا كان سيقال عنّي لو سبقني الأستاذ صالح علماني في نشرِ ترجمته لهذه الرواية الإسبانيّة.

نسيتُ أن أقول إنّ كلّ أصدقائي، تقريبًا، ومنهم بعضُ الناشرين، قرأوا هذه الروايةَ ما بين عامَيْ ١٩٨٧ و١٩٩٩. حتى إنّ أحد الأصدقاء داعبني عندما أخبرتُه بنبإ الحصول على موافقة الاتحاد/ الرقابة، قائلاً: «لماذا ستَطْبع هذه الروايةَ وقد قرأها مخطوطةً كلُّ الأصدقاء والمعارف؟!»

دمشق

محمد كامل الخطيب

باحث وأديب سوريّ بارز. من أعماله النقديّة: **المغامرة المعقّدة**، و**السهم والدائرة**، و**الرواية والواقع**. ومن رواياته: **هكذا... كالنهر**، و**أجمل السنوات**. يُعْتبر من روّاد مفهوم المجتمع المدنيّ في سوريا. قام بتحرير وتقديم سلسلة ثقافة النهضة العربيّة الحديثة، التي صدر منها أكثرُ من ٤٠ كتابًا عن وزارة الثقافة في دمشق.